

## حاجتنا إلى " تربية العقل " عند " ابن حبان "

### من الرجل ؟

هو أبو حاتم محمد بن حبان البستي ، الإمام العلامة ، الفاضل ، المتقن . كان مكثرا من الحديث والشيوخ ، عالما بالمتون والأسانيد ، أخرج من علوم الحديث ما عجز غيره عنه . ومن استقرأ كتاباته ، أدرك من غير شك أنه كان طويل الباع ، واسع الأفق الثقافى .

طاف العديد من البلدان ، من كل ، يأخذ من أعلم علمائها : من وراء النهر حتى الإسكندرية بمصر . قال عنه الحاكم أبو عبد الله الحافظ : " أبو حاتم البستي القاضى ، كان من أوعية العلم فى اللغة والفقه والحديث والوعظ ، ومن عقلاء الرجال ، صنف له من التصنيف فى الحديث ما لم يسبق إليه ، وولى القضاء بسمرقند وغيرها من المدن ، ثم ورد نيسابور عام ٣٣٤ هـ ، وكانت وفاته عام ٣٥٤ هـ ، وفى شهر شوال .

ومن بين تصنيفه العديد ، كتاب ( الهداية إلى علم المنن ) ، قصد فيه إظهار الصناعتين اللتين هما صناعة الحديث ، والفقه ، ينكر حديثا ويترجم له ، ثم ينكر من ينفرد بذلك الحديث ، ومن أى بلد هو ، ثم يذكر كل اسم فى إسناده من الصحابة إلى شيخه بما يعرف من نسبه ومولده وموته وكنيته وقبيلته وفضله وتيقظه ، ثم ينكر ما فى ذلك الحديث من الفقه والحكمة ، فإن عارضه خبر نكره وجمع بينهما ، وأن تضاد لفظه فى خبر آخر ، تلتطف للجمع بينهما حتى يعلم ما فى كل خبر من صناعة الفقه والحديث معا .

وهناك كتاب آخر لا بد أن يشد انتباه المسلم المعاصر لتصديه لقضية مهمة وخطيرة من قضايا القرن الحادى والعشرين ، فما بالنا والكتاب من مؤلفات القرن الرابع الهجرى ؟ أما هذا الكتاب ، فهو كتاب ( روضة العقلاء ونزوة الفضلاء ) ، الذى قام بتحقيقه وتصحيحه ، المحقق المعروف محمد محيى الدين عبد الحميد ، وكل من محمد عبد الرزاق حمزة الذى كان مدرسا بالمسجد الحرام ، ومحمد حامد الفقى الذى كان رئيسا لجماعة أنصار السنة المحمدية بمصر ، وطبع فى السنة المحمدية بالقاهرة عام ١٣٦٨ هـ الموافق عام ١٩٤٩ م ، وهو الذى نحاول فى هذه الدراسة أن نتوقف عنده ، تحليلا لأفكاره ، وإيرازا لآبجاءاته ، وتعميقا لفلسفته .

## أهمية البحث في ( العقل ) :

والملاحظة التي لا تخطنها عين ، هي ذلك الاحتفال الكبير من ابن حبان بالعقل ، مما يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك ، أن الحضارة التي تقوم على احترام العقل وحسن استثمار إمكاناته وتوظيفه وإزالة الحواجز التي تحول بينه وبين الانطلاق إلى آفاق البحث الحر والتفكير الناقد ، إلا ما نهى عنه الله عز وجل ورسوله ﷺ ، إنما هي حضارة رشيدة ، لديها من مقومات القوة ما يجعلها لا تخشى إطلاق سراح العقل ، بل ترى في ذلك إظهاراً لقوتها ، وقدحاً لزناد القدرات المعرفية التي وهبها الله لأبنائها .

وكان هذا بالفعل حال الحضارة الإسلامية مما يبده ذلك الوهم الشائع عند البعض من المعاندين للدين من تعارض بين العقل والشرع ، ففي هذه الحضارة : تعانق طرفاها : العقل والشرع ، فكانت عظمتها ، وكانت إنجازاتها التي ستظل محيرة للباحثين .

ولقد فزع ابن حبان مما رآه في زمنه من بداية ظهور بعض المظاهر المناقضة للعقل ، فأراد أن ينبه إلى ذلك ، ويضع الأسس والمبادئ التي تكفل للممارسة العقلية طريقها المستقيم ، لوعيه بدور هذه الهيئة الإلهية الجبارة في رفع شأن المسلمين إذا أعطوها ما تستحقه من عناية .

إنك إذ تقرأ كلمات ابن حبان التي ينعي فيها بعض مظاهر اللاعقل في عصره ، تأخذك الحسرة ، إذ أن عصره هو أزهى عصور الحضارة الإسلامية ، ونشير إليه دائماً بآيات التقدير والإعجاب ، ونعدد مظاهر التقدم والتطور العقلية فيه ، فماذا كان الرجل سيقول ، لو قدر له أن يعيش في أواخر عصر المماليك مثلاً ، وأواخر العهد العثماني ، بل وفي عصرنا الحالي وما يشيع فيه من أساليب تفكير ومناهج سير ؟ يقول ابن حبان :

" أما بعد .. فإن الزمان قد تبين للعاقل تغيره ، ولاح للبيت تبدله فنبغ فيه أقوام يدعون الستمن من العقل باستعمال ضد ما يوجب العقل من شهوات صدورهم وترك ما يوجب نفسه العقل بهجسات قلوبهم . جعلوا أساس العقل الذي يعتقدون عليه عند المعضلات : النفاق والمداهنة ، وفروعه عند ورود النائبات ، حسن اللباس والفصاحة ، وزعموا أن من أحكم هذه الأشياء الأربع ، فهو العاقل الذي يجب الاقتداء به ، ومن تخلف عن أحكامها ، فهو الأتوك ( الأحمق ) الذي يجب الأزورار عنه " .

ذلك هو المرض الذى أفزع ابن حبان : النفاق والمداهنة ، وكلاهما بطبيعة الحال يفتقدان شروط التعقل ، وما لا يقل عنهما خطورة ، وأن يكسبا لباسا يغر المذج والبسطاء من الناس .. حسن اللباس والفصاحة .. المظهر واللفظية .

من أجل ذلك كان لا بد من إشهار سلاح الترييف فى وجه اللاعقلين من المنافقين والمداهنين من أصحاب اللفظية والشكلية الخاوية .

### ما العقل ؟

ونحن وإن كنا لا نميل إلى عقد المقارنات بين علمائنا الأقدمين ، وعلماء الغرب المحدثين ، إلا أننا لا نستطيع وقف ذلك التداعى الفورى لأراء المدرسة السلوكية ، وكذلك الفلسفة البرجماتية وخاصة عند ( جون ديوى ) ، عندما نقرأ هذا التعريف الذى يقدمه عالمنا العظيم ، فهو يصفه - أى العقل - بأنه : " اسم يقع على المعرفة بسلوك الصواب ، والعلم باجتتاب الخطأ " .

وهذا النوع من المعرفة ليس الناس فيه سواء ، فله مستويات ودرجات أربع ، فإذا كان المرء فى أول درجاتها ، سمى أدنيا ، وفى الثانية أرييا ، والثالثة : لييبا ، وفى الرابعة : عاقلا . وإذا أردنا تشبيها بمصطلحات ومستويات عصرنا الحاضر ، فسوف نجد على التوالى : المتعلم ، والباحث ، والعالم ، والمفكر . كما أن الرجل إذا دخل فى أول الدهاء ، قيل له : شيطان ، فإذا عتا فى الطغيان ، قيل : مارد ، فإذا زاد على ذلك قيل : عبقرى ، فإذا جمع إلى خبثه شدة شر ، قيل : عفريت .

وكذلك الجاهل : يقال فى أول درجته : المائق ، ثم الرقيق ، ثم الأنوك ، ثم الأحمق .

ويفرق ابن حبان بين ما هو فطرى وما هو مكتسب بالنسبة للعقل ، ذلك القدر المعبر عن القدرات والاستعدادات الفطرية ، وما يحدث لهذه القدرات والاستعدادات من نمو نتيجة ما تتعرض له من مؤثرات البيئة والتربية ، وهو يعبر عن هذه المعانى بلفظه ، قائلا :

" العقل نوعان : مطبوع ومسموع ، فالمطبوع منهما كالأرض ، والمسموع كالبنجر والماء ، ولا سبيل للعقل المطبوع أن يخلص له عمل محصول ، دون أن يرد عليه العقل المسموع ، فينبهه من رقدته ، ويطلقه من مكانه ، ويستخرج البذر والماء ما فى قعر الأرض من كثرة الربيع .

فالعقل الطبيعي من باطن الإنسان بموضوع عروق الشجرة من الأرض ، والعقل السموع من ظاهره ، ككتلى ثمرة الشجرة من فروعها ' .

وفى ذلك يقول محمد بن اسحاق بن حبيب الواسطى :

فمطبوع ومسموع	رأيت العقل نوعين
إذا لم يك مطبوع	ولا ينفع مسموع
وضوء العين ممنوع	كما لا تنفع الشمس

فليس المهم إذن مقدار ما يملك المرء من استعدادات وقدرات عقلية فقط ، وإنما لابد من استثمار هذه الاستعدادات والقدرات .. إنها مثل أى مصدر من مصادر الثروة ، لابد لها من ( تشغيل ) .. لابد أن تسير فى دورتها ، وكلما تسارعت نورتها ، كلما جاءت بالعائد المطلوب ، بل وبأكثر مما هو مطلوب .

وليس من المتصور بطبيعة الحال أن يتم ذلك ( آليا ) وإنما لابد من الفعل القصدى .. لابد من إثراء البيئة المحيطة بالإتقان لإثراء ثقافيا يفتح آفاق التعلم والتعليم ، فذلك من شأنه أن يتيح للعقل فرصته للعمل ، وفرصة النمو . والأعم من هذا وذاك ، أن نتيقن من أن هذا الإثراء الثقافى لن تكون له فاعلية إذا عاش جوا خانقا من قيود الرأى .

والعدو اللدود للعقل هو ( الهوى ) ، ومن ثم فإن من واجب المرء أن يسير معها بمنهجين مختلفين : فما هو مطلوب للعقل ، يسرع فى تلبيةه ، وما هو مطلوب لإشباع الهوى ، يسوف فى تلبيةه ، وذلك أن مثل هذا الأسلوب من شأنه أن يتيح للعقل نموا أسرع من نمو الهوى ، وبذلك يزداد قوة وقدرة عليه ، فتستقيم حياة الإتقان .

### ضرورة العقل وأهميته :

ولكى يبين ابن حبان فضل العقل وأهميته ، كان من الضرورى أن يستعين على ذلك بأحاديث الرسول ﷺ ، لكن مشكلة مهمة واجهته ، ذلك أن الأحاديث التى أشاد فيها الرسول بفضل العقل ، قد رواها نفر من الرواة الذين لا يثق عالمنا الفاضل فيهم ، مثل : أبان ابن عياش ، وسلمة بن وردان ، وعمير بن عمران ، وعلى بن زيد ، والحسن بن دينار ، وعباد بن كثير ، وميسرة بن عبد ربه ، وداود بن المحبر ، ومنصور بن صفر وذويهم .

لكنه يروى لنا حديثاً ، لا تأتي فيه لفظة ( العقل ) ، لكن دراسته وتحليله تؤكد أنه يحتوى على المعانى المرادة من هذه الكلمة . أما الحديث ، فهو : " أن الله يحب مكارم الأخلاق ويكره سفافها " ، فهنا نجد أن محبة المرء المكارم من الأخلاق وكرهته لسفافها هو نفس العقل " فالعقل به الحظ ، ويؤنس الغربة ، وينفى الفاقة ، ولا مال أفضل منه ، ولا يقم دين أحد حتى يتم عقله " .

ولا ندرى حقاً لماذا لم يستعن ابن حبان بآيات القرآن الكريم ، وهى أكثر من أن يتسع لها هذا المقال ، تنبيهاً إلى ضرورة التعقل والتفكر والتبصر والعلم والفقه .. إلى غير ذلك من مرادفات ووظائف يستطيع القارئ أن يقرأ عنها المزيد فى كتيب للدكتور أحمد الحوفى ( القرآن والتفكير ) ، وكتاب عباس محمود العقاد ( التفكير فريضة إسلامية ) ، وكتابيننا : ( أصول التربية الإسلامية ) و ( دراسات فى التربية الإسلامية ) .

ويسوق ابن حبان أقوال كثيرين ورواياتهم عن فضل العقل وضرورته ، فمن ذلك قول أحد الشعراء :

وأفضل قسم الله للمرء عقله	فليس من الخيرات شئ يقاربه
إذا أكمل الرحمن للمرء عقله	فقد كملت أخلاقه ومآربه
يعيش الفتى فى الناس بالعقل أنه	على العقل يجرى علمه وتجاربه

وقيل لابن المبارك " ما خير ما أعطى الرجل ؟ قال : عقل ، قيل : فإن لم يكن ؟ قال أدب حسن . قيل : فإن لم يكن ؟ قال : أخ صالح يستشيره . قيل : فإن لم يكن ؟ قال : موت عاجل " !!

وروى عن أحد الشعراء :

يزين الفتى فى الناس صحة عقله	وإن كان محظوراً عليه مكاسبه
يشين الفتى فى الناس خفة عقله	وإن كرمت أعراقه ومناسبه

ويعقب ابن حبان على ذلك بأن على المرء بناء على هذا : " أن يكون بما أحيا عقله من الحكمة أكلف - أى أشد حبا - منه بما أحيا جسمه من القوت ، لأن قوت الأجساد المطعام ، وقوت العقل ، الحكم ، فكما أن الأجساد تموت عند فقد الطعام والشراب ، فكذلك العقول ، إذا فقدت قوتها من الحكمة ماتت " .

ولعل ما يشير إلى ذلك التلازم الأساسى بين العقل والشريعة ، وما روى عن الحسن بن أبى الحسن البصرى قوله " ما تم دين عبد قط حتى يتم عقله " . ولا غرابة فى ذلك ، فبالعقل يفهم الإنسان مبادئ الدين وقواعد الشريعة ، وبالعقل يزود عنها ضد الملحدين والمنكرين ، وبالعقل يعقل التكاليف وعلى تركها يحاسب .

وذكر معاوية بن قرة : " إن القوم ليحجون ويعتمرون ، ويجاهدون ويصلون ، ويصومون ، وما يعطون يوم القيامة إلا على قدر عقولهم " .

وإذا كان العقل بهذه الدرجة من اللزوم للشرع والدين ، فإن الدين أساسى كذلك العقل ، ومن هنا قال حفص بن حميد الأكاف : " العاقل لا يغبن ( بفتح الباء ) ، والورع لا يغبن ( بكسر الباء ) " . ويعلق ابن حبان على تلك العبارة بقوله : هذه لفظة جامعة ، تشتمل على معان شتى ، فكما لا ينفع الاجتهاد بغير توفيق ، ولا الجمال بغير حلاوة ، ولا السرور بغير أمن ، وكذلك لا ينفع العقل بغير ورع ، ولا الحفظ بغير عمل . وكما أن السرور تبع للأمن ، والقراءة تبع للمودة ، كذلك المرءات كلها تبع للعقل " .

### آفات العقل :

وكما أن لكل شئ آفة ، فللعقل آفاته التى تعطل عمله وتشل قدرته ، من هذه الآفات : الغم والحزن ، إذ من شأن كل منهما أن ينثر ذرات رمال أمام العقل فتحول بينه وبين الرؤية الصحيحة ، ولذلك قال ابن حبان " من حسن عقله ، وقبح وجهه ، فقد افقد فضائل نفسه قبائح وجهه ، ومن حسن وجهه وقل عقله ، فقد أذهب محاسن وجهه نقائص نفسه ، فلا يجب للعاقل أن يغتم إذا كان معدما " .

ومنها : الكبر ، والبلاء المردى ، والرخاء المفرط ، لأن البلى إذا تكاثرت عليه أهلك عقله واستنفذت قواه ، والرخاء أيضا إذا تكاثر فلربما أدى بصاحبه إلى البطر والكبر .

ومنها : العجب ، فهو صورة من صور الآفات العقلية القريبة من الكبر ، ومن هنا كان على العاقل أن يوطن نفسه على الصبر على جار السوء ، وعشيرة السوء ، وجليس السوء .

ومما يشين العاقل أن يحب أن يسمى به ، لأن من عرف بالدهاء حذر ، ومن عقل العاقل ، عدم التقنى بعقله ، ذلك أن العقل كالبنر ، وإن خفى فى الأرض أياما ، فإنه لابد سيظهر فى وقت معلوم .

ومنها : القتال بغير عدة ، وعدة العقل : الحجة ، ومن ثم فإن الذى يخاصم بغير دليل والذى يصارع بغير حجة ، يضر عقله .

### تنمية العقل وتدريبه :

ولعلنا بعد هذا نكون بحاجة إلى ذلك الجهد الإيجابى الذى يمكن عن طريقه ، تنمية العقل وتدريبه حتى يستطيع أن يكون بالفعل أداة الإيمان الممعلم فى تربية نفسه والمساهمة فى تطور مجتمعه :

- من أهم الواجبات فى هذا الشأن ، التريث ، والتريث ضد العجلة ، وهو يتبدى فى ضرورة عدم الإسراع بالإجابة قبل أن يتثبت الإيمان مما تقوم عليه من حجية ومن اشتمالها على الجوانب الضرورية التى يتطلبها السؤال .

- كذلك من المهم ألا يتعامل العاقل مع الآخرين بأسلوب ينضح بالاحتقار والازدراء لهم أيا كان موقعهم سواء فى أعلى السلم الإدارى والاجتماعى أو فى أسفله ، لأن من استحققر السلطان ، أفسد دنياه ، ومن استحققر الأتقياء ، أهلك دينه ، ومن استحققر الأخوان ، أفنى مروءته ، ومن استحققر العام ، أذهب صيانتة .

وطريق إصلاح الخطأ ، يكون بالكشف عنه حتى ولو كان هذا الخطأ لدينا نحن ، ومن ثم فلا بد من كشف العيوب الخاصة ومواجهتها " لأن من خفى عليه عيب نفسه ، خفيت عليه محاسن غيره ، وأن من أشد العقوبة للمرء أن يخفى عليه عيبه ، لأنه ليس بمطلع عن عيبه من لم يعرفه ، وليس بنائل محاسن الناس من لم يعرفها " ، فكلن إحدى مميزات المكاشفة ومواجهة العيوب الخاصة ، إتاحة الفرصة للوقوف على محاسن الآخرين .

- والخبرة هى معين التعقل الذى لا ينضب ، وهناك من فلامسة التربية المحدثين من أقام فلسفته وطرقه فى التعليم كلها على ( الخبرة ) ، وإمام هذا الاتجاه ، هو الفيلسوف الأمريكى المعروف ( جون ديوى ) المتوفى عام ١٩٥٢ .

واللفظ الذى يعبر به ابن حبان عن ( الخبرة ) هو ( التجربة ) ، فهو لا يعنى بها ما نعنيه نحن اليوم فى معامل البحث وطرق التفكير العلمى ، وهو يستعين بقول المنتصر بن بلال بن المنتصر الأنصارى :

الم تر أن العقل زين لأهله                      وأن كمال العقل طول التجارب  
وقد وعظ الماضى من الدهر ذا النهى              ويزداد فى أيامه بالتجارب

بل لقد استخدم ابن حبان لفظ ( الخبرة ) نفسه وإن جعلها وعاء للتجارب فقال " إن المرء لا يكون مصيبا فى تناول الأشياء حتى تكون له خبرة بالتجارب " .

والخبرة فى مسيرتها منذ الطفولة حتى الكهولة تمر بمراحل ومستويات ومراتب " والعاقِل يكون حسن المآخذ فى صغره ، صديح الاعتبار فى صباه ، حسن عند إدراكه ، رضى الشمائل فى شبابه ، ذا رأى الحر والحزم فى كهولته .. " .

كذلك يستخدم ابن حبان معنى آخر للخبرة فيؤكد أنه " لا ينفع العقل إلا بالاستعمال " .

- ومكارم الأخلاق سمة أساسية لمن أراد أن يوصف بالتعقل والحكمة : وقد حاول

على بن محمد التامى أن يجمع عددا مهما من هذه المكارم فى شعر جاء فيه :

إن المكارم أبواب مصنفة                      فالعقل أولها والصمت ثانيها  
والعلم ثالثها والحلم رابعها                      والجود خامسها والصدق سادسها  
والصبر سابعها والشكر ثامنها                      واللين تاسعها والصدق عاشرها

- ولا يعنى ما أشرنا إليه من قبل من نقد ابن حبان لما شاع فى عصره من التكلف فى المظهر ، وأن ذلك علامة من علامات اللاعقلية ، أنه يقف ضد ( المظهر الحسن ) ، كلا ، إن نقده ينصب على من يكون الحسن ستارا يخفى به خفة فى العقل وطيشا ورياء ونفاقا. أما إذا كان الإنسان راجح العقل ، نهما للمعرفة ، مقبلا عليها ، كريم الأخلاق ، فلا بد أن يكمل ذلك بأن يتزيا زيا حسنا يجعله مقبولا من الناس غير منفر ، يقول " والواجب على العاقل أن يكون حسن السمات طويل الصمت ، فإن ذلك من أخلاق الأنبياء ، كما أن سوء السمات من شيم الأشقياء " .

- وحقا ، فلقد صدق من قال أن المرء بقربنه يقرن ، فنوعية الأصدقاء والزملاء

المحيطين بالإنسان لها دور مهم فى التأثير على تربيته وتنشئته ، ومن هنا كانت استعانة ابن

حيان يقول أحدهم : " عقولنا قليلة ، فإذا جلسنا مع من هو أهل عقلا منا ، ذهب التليل ، وإني لأرى الرجل يجلس مع من هو أهل منه عقلا فأمعته " .

فكأن مجالسة الأميين والفاغين من الثقافة غير مطلوبة دائما ، وأن كل من الضروري ألا يعنى ذلك ( المقاطعة ) و ( المخاصمة ) و ( التعالى ) على مثل هؤلاء الناس ، وإنما المقصود هو تقليل ( المخالطة ) و ( المعاشرة ) ، فالفكر بحاجة إلى التحدى والإثارة ، ومما يساعد الإنسان على ذلك أن يجالس من هم أكثر منه ثقافة وعقلا . ويقول أحد الثقاة : " جالسوا الألباء : أصدقاء كانوا أم أعداء ، فإن العقول تلقح العقول " .

ويعد ...

ليمت هذه هي نهاية الطريق .. ذلك أن سالك طريق العقل لابد أن تطول به المسيرة .. ولكن للصفحات حدود .. وللقلم طاقة ، وما زالت هناك علامات على الطريق وخطوات تلو خطوات ..